فهل لنا من التاريخ عبرة؟؟

او

ضياع الصوت القادرعلى تغيير التاريخ

أو

فلتحذر الأحزاب العربية من تكرار اسطورة سيزيف

لم تنفض الانتخابات الرابعة الغبار نهائياً عن نتائجها الرسمية والنهائية ولكن وبغض النظر عن هذه النتائج وامكانيات تشكيل الحكومة، أي حكومة كانت، من عدمها وما سيكون عليه حال ووضع ومكانة الأحزاب العربية كلها او بعضها في هذه الحكومة، أي حكومة، من عدمه فإن ما يمكن قوله تلخيصاً وإجمالاً وتحليلاً هو :" وما أشبه اليوم بالأمس " فالطريق المسدود الذي شهدته البلاد عبر جمود انتخابي وحكومات ليست كما ارادت الطبيعة ما زال قائماُ ، ورغم ذلك فإنه ليس الأهم بل ان الاهم هو العبر والنتائج وما يجب ان نستخلصه جميعاً في هذه الدولة ، من العرب واليهود واليسار واليمين والعلمانيين والمتدينين ، كما انه ليس الأخطر بل ان الاخطر هو ان السياسيين جميعاً ودون استثناء فشلوا وربما سيواصلون فشلهم في قراءة العنوان المكتوب على الحائط بأحرف ليست من ذهب بل من نار يمكنها ان تأكل الاخضر واليابس إن لم تجد من يطفأها او يُخْمِدَ لهيبها.

ذكرت في مقالي في "موقع بانيت " و"صحيفة بانوراما " في 26.2.2021 ": ويأبى التاريخ، قريباً كان ام بعيداً، الا ان يقول كلمته وعادة ما يكون ذلك عبر احداث تتكرر وتتقاطع لتثبت امراً ما كان غائباً عنا أو حقيقة فضلنا عمداً تجاهلها وتناسيناها مع سابق الإصرار والترصد متجاهلين نتائجها المستقبلية ومعانيها الآنية والاستنتاجات الحتمية منها" وهذا ما حصل على ارض الواقع قطرياً وفي المجتمع العربي خلال الانتخابات الرابعة التي دارت رحاها يوم الثلاثاء، والتي كانت في معظم تفاصيلها إن لم يكن كلها نسخة طبق الاصل عن انتخابات سابقة سواء كانت الثالثة او الثانية ، ليتجاهل المشاركون فيها من قيادات الاحزاب المختلفة ما كان عليهم ان يتذكروه وربما كان ذلك التناسي من باب الثقة الزائدة او من باب الإيمان الخطير بان ذاكرة الشعب في اسرائيل قصيرة بل تكاد تكون معدومة وربما، وهذا هو الأقسى، من باب الاستهتار بالشعب وربما الاعتقاد بان الشعب " غبي وقليل الادراك".

قبل كل ذلك اثبتت الانتخابات الرابعة عيوب النظام السياسي والبرلماني في البلاد وضعف بنيته بل هشاشة عظامه كونه لا يقف على قدمين من حديد او فولاذ" انطلاقاً من كون المجتمع الإسرائيلي أصبح مجتمعاً تفكك سريعاً وانتقل من " بوتقة ينصهر فيها الجميع" الى "نظام برلماني طائفي وحمائلي وعائلي" تحكمه الانتماءات الضيقة والصغيرة وتسوده مشاعر الكراهية والاقصاء المتبادلة بين مختلف الانتماءات الدينية والسياسية والاجتماعية، وذلك بخلاف الدول الشابة والصغيرة سناً في العالم التي عادة ما تسودها الوحدة والتعاضد والتكافل ما يشكل التعبير الأخطر عن القول الدارج" حروب اليهود **מלחמות היהודים**" التي تحول الدولة الى دويلات وفئات وتجعل من الدولة ككيان سياسي واجتماعي وسيلة لتخليد وتكريس المصالح الضيقة سياسياً واقتصادياً للأحزاب الفئوية ووسيلة لتحقيق مكاسب شخصية للقائد ، بنيامين نتنياهو في حالتنا هذه ، تتلخص في وقف محاكمته او تكريس نهج الانتخابات المتكررة التي تبقيه رئيساً للحكومة او رئيساً لحكومات انتقالية متعاقبة .

تناسى نتنياهو، ومن باب الثقة الزائدة والمفرطة، بان الجمود هو عدو القائد وعدو السياسي اللدود واعتمد على ان " سحره الشخصي" ومناوراته مقابل الاحزاب اليمينية المتطرفة دينياً وسياسياً واتهامه لكافة خصومه اليوم ومعظمهم حلفاء الامس بأنهم يسار متطرف سيتحالفون مع الأعضاء العرب أعداء الدولة سيضمن له الفوز، كما تناسى خصومه وبعضهم حلفاء الامس ان شعارات الرفض والإقصاء الشخصي والسياسي ليست برنامجاً انتخابياً ولا يمكن ان تكون برنامجاً انتخابياً اذا لم يرافقها برنامج عمل يشكل محفزاً للخروج للتصويت وليس فقط فزاعة للتخويف والترهيب، وتناسى " البرلمانيون الجدد" الذين حاولوا خوض الانتخابات ان الشعب في إسرائيل يعاني عقداً كثيرة أولها الأمن والسياسة وثانيها سيادة مواقف إقصاء العرب وبالتالي لا مكان لمن يحاول " اختراع العجلة من جديد" وإعلاء شان البرامج الاقتصادية او قضايا التعايش بين العرب واليهود او تحقيق السلام مع الفلسطينيين ، أو لمن يعتقد انه بإمكانهم " استبدال الشعب" او ترويضه او تغيير سبل تفكيره بين ليلة وضحاها.

ومقابل نتنياهو الذي كان تناسيه امراً نتائجه مقبولة وغير كارثية، تقربه من تشكيل حكومة او تمكنه من ذلك ربما، كان التناسي او النسيان الذي مارسته الاحزاب العربية كارثة وطامة كبرى كنت حذرت منها ليس سياسياً فحسب بل من ابعادها اجتماعياً واقتصادياً ودينياً وطائفياً ، فجاءت النتيجة مطابقة لنتيجة التصويت بعد الانقسام قبل معركتين انتخابيتين عبر انخفاض نسبة التصويت الى مستويات غير معتادة والى درك أسفل غير مسبوق ما انتهى الى انخفاض التمثيل العربي بأكثر من الثلث وخفضه من 15 نائباً الى 11 في احسن الحالات، بكل ما يعنيه ذلك من استنتاجات وعبر أولها ان قيادات الاحزاب المختلفة تتصرف فعلاً بما يتوافق ومصالحها الشخصية والحزبية والسياسية وحتى الطائفية والدينية الضيقة ، بينما تتشدق قولاً بالحديث عن نبض الشارع ومصالح الشعب وانها قيادات قصيرة النظر، اقصى ما تراه عيناها هو الانتخابات القريبة، وقيادات تعيش الحاضر في احسن الأحوال إن لم تكن في بعض الأحيان تعيش الماضي وتكرر عداواته وخلافاته الآنية ولا تخطط للمستقبل لا القريب ولا البعيد، وانها قيادات أحزاب وليست قيادات جماهير تغلب مصالحها واعتباراتها الحزبية الضيقة والخاصة على تلك العامة ولا تكتفي بذلك فقط بل انها تستغبي المصوتين وتستخف بهم وتحاول "تغليف فئويتها بزينة لغوية وشفوية وشعارات رنانة وغوغائية تحاول عبرها اقناع المصوت انها تعمل لمصلحته بينما هي تمس بمصالحه او تحاول إقناعه ان مصالحها لا بد ان تكون مشابهة او موازية او مطابقة لمصالحه بل انها مصالحه بل ربما قبلها، وانها قيادات ما زالت تعيش في برجها العاجي " منقطعة عما حولها مترفعة بل متعالية عن كل ما حولها وكل من حولها" وانها قيادات لا تجيد الحوار فيما بينها بل ايضاً مع مصوتيها وناخبيها ولا تشعر بنبضهم ولا تهتم لرأيهم بل تعتبرهم مخزون أصوات مفروغ منه تجنده ليس بالإقناع بل بالتخويف وليس بالترغيب بمواقفها وطروحاتها بل بالترهيب من بعبع و، رغم انها خصم وشيطان سيلتهمهم كان نتنياهو ممثله خلال الانتخابات الأربع الاخيرة.

تناست القيادات العربية انها ليست الأدهى على الساحة السياسية ، رغم انها اعتقدت وما زالت تعتقد أنها كذلك، فاختلفت فيما بينها على امر اتفقت عليه قبل اشهر فقط وهو ضرورة المشاركة في الحياة السياسية والبرلمانية وعندما فهم قادتها انهم اتفقوا على المبدأ والغاية سارعوا الى افتعال اختلاف حول الوسيلة ، ارادوا به إخفاء عداوات شخصية تمخضت عن معركة داخلية حوَّل كل منهم الآخر فيها الى شيطان رجيم وعدو لئيم وخطير داهم ، وانشغلوا بترهات فتحت الباب على مصراعيه امام نتنياهو الداهية السياسي لاختراق المجتمع العربي على شاكلة" ذئب في ملابس الحمل الوديع" ليتحول من " شخصية غير مرغوب فيها لفظها المجتمع العربي الى ضيف كريم وسخي يصب القهوة لمضيفيه في عمل رمزي هو "قمة الضيافة والحاتمية العربية وكأن مضيفيه يقولون له: يا ضيفنا إذ جئتنا فوجدتنا نحن الضيوف وانت رب المنزل" ولينادوه تيمناً يابو يائير وهو مناداة تكسر في عرف العرب والشرق الحواجز وتخفف العداوات ليتحول من خطر وجلاد وعدو لدود الى ضيف كريم ومُخَلِّص منتظر وصديق ودود، بكل ما يعنيه ذلك من عدم ادراك لأهمية التصويت كحق بل واجب ديمقراطي وكوسيلة لتحقيق الحقوق وتقويم الاعوجاج وليس للتعبير فقط عن الاحتجاج ومن تنازل عن واجب التصويت الذي هو الرمز الوحيد لمساواة العرب واليهود في هذه البلاد، فللعربي صوت واحد كما لليهودي اما في غيره فلليهودي مثل حظوظ عشرات العرب من الميزانيات والحقوق والامتيازات في دولة تؤكد انها دولة اليهود لكنها تتظاهر انها ديمقراطية قولاً وليس فعلاً، وبما يعنيه فوق كل ما سبق وقبل كل ما سبق اننا لا نجيد استخدام الديمقراطية واللعبة الانتخابية وان عواطفنا، كالخوف والغضب والاستياء وخيبة الأمل ، هي ما يحركنا حتى في ممارستنا الديمقراطية وليس صوت العقل والمنطق، تماماً كما ان العواطف والمشاعر هي ما حرَّك الاحزاب العربية ولذلك فكلاهما، الاحزاب والجماهير سيان، وهنا الطامة الكبرى التي تؤكد ان سبعة عقود من النشاط البرلماني لم تكن كافية للأحزاب العربية لتعزيز الوعي الديمقراطي والانتخابي والسياسي لدى مصوتيها وهذا دليل فشلها، على النقيض التام من الأحزاب التي تمثل الأقلية الدينية المتزمتة دينياً ( الحريديم وشاس) الذين كانت خمسة عقود كافية لها لترسيخ الوعي الانتخابي لناخبيها سواء كان عبر ترسيخ مفاهيم أهمية المشاركة الانتخابية او عبر ترسيخ مبادئ إجادة اللعبة السياسية والحفاظ على مبدا " المشاركة في الائتلاف رغم التفاوت في المواقف ورغم الاختلاف".

لكن الاخطر من ذلك ان المواطنين العرب عبر تغليبهم المشاعر والعواطف وعبر كرم ضيافتهم وقهوتهم السادة وتقاعسهم عن التصويت أفقدوا انفسهم بأنفسهم إمكانية فرض أنفسهم كلاعب أساسي ودائم ومثابر ومواظب وموحد في الحلبة السياسية واللعبة البرلمانية واتخاذ القرارات وافقدوا انفسهم إمكانية التحول من أحزاب موسمية الى أحزاب حقيقية لها رصيدها ومؤيدوها الذين لا ينقصون بل يزيدون وبالتالي يجب على الجميع ان يحسب لهم ألف حساب ، وجنحوا الى الخلاف ليهدموا ما بنته أيديهم عملاً بالقول" وكيف يبلغ البنيان تمامه اذا كنت تبني وغيرك يهدم" والغير هنا وفي هذه الحالة هم قادة الأحزاب اولاً والمواطنون ثانياً، والمأساة انهم هم من يبني ...نهدم بلحظة ما بنيناه بجهد دام سنوات .

رغم ما سبق فإنني انشد التفاؤل او على الأقل إحتمال التفاؤل او البحث عن بارقة أمل سيحددها تصرف الأحزاب والمواطنين في المجتمع العربي على حد سواء عبر تحديد طبيعة واهداف النقاش الذي سيلي الانتخابات ولا بد سيليها، وهل سيكون مجرد تبادل يتواصل للاتهامات وعبارات التخوين الدينية والطائفية وهي أخطر ما آلت اليه الانتخابات الأخيرة وما تخللها، ام انه سيكون قراءة واعية لما حدث تنتهي الى استخلاص للعبر ، وهل سيكون ما يلي الانتخابات تكريس وتعميق للخلاف والاختلاف ام محاولة للعودة الى نقاط التوافق والالتقاء، وهل سيكون مجرد إهدار للوقت والجهد والمال والأعصاب ام عمل فعلي على تصحيح الأخطاء او مراجعتها كخطوة أولى ، وهل سيكون بمثابة استمرارٍ لدفن الراس في الرمال والتمترس في المواقف خاصة اذا كانت خاطئة، ومعظمها ومن الطرفين كان كذلك، ام ان الأحزاب العربية وقياداتها خاصة ، ستتعلم أخيراً وقبل فوات الاوان أي "قبل ان تقع الفأس بالرأس" لغة وأسلوب المكاشفة والمحاسبة وهو ما يعرف في السياسة باستخلاص الدروس والعبر ، وما يمنع تكرار الأخطاء او التصرف بشكل غير منطقي يكرر نفس العمل في كل مرة ويتوقع نتيجة تتفاوت او تختلف، وإلا سيكرر المواطنون العرب بجريرة احزابهم وقياداتها، اسطورة سيزيف الإغريقية (وسيزيف هو ابن الملك [أيولوس](https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D8%A3%D9%8A%D9%88%D9%84%D9%88%D8%B3&action=edit&redlink=1) ملك [ثيساليا](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%AB%D9%8A%D8%B3%D8%A7%D9%84%D9%8A%D8%A7) [وإيناريت](https://ar.wikipedia.org/w/index.php?title=%D8%A5%D9%8A%D9%86%D8%A7%D8%B1%D9%8A%D8%AA&action=edit&redlink=1)) الذي حكمت عليه الآلهة بان يصعد دون توقف حاملاً صخرة ثقيلة الى قمة جبل مدبب لا يستطيع الاستراحة عليه ، فإن وصل للقمة( 15 مقعداً في البرلمان وأكثر وبيضة قبان جماعية في حالتنا) تدحرجت منه تلك الصخرة( عبء حمل المواطن العربي الاحزاب العربية على كاهله ودعمها ومسامحتها مرة تلو الأخرى) ثانيةً لتستقر بقاع الوادي( 10 مقاعد او 11 ونسبة تصويت منخفضة وقنوط واسع) ، فيعود مرة أخرى إلى رفعها للقمة ويظل يعمل هكذا دون هدف حتى الأبد ، ليكون بذلك ما يحدث لسيزيف ( المواطن العربي والمصوت العربي) رمزاً للعذاب الأبدي الذي لا يتوقف.... وعندها ستكون النتيجة اليأس والقنوط او التمرد والنفور والعزوف بل الهروب الى أحزاب أخرى وهي نتائج وخيمة معناها " على الدنيا السلام" وأحلاها على الإطلاق مر كالعلقم بل أكثر.